العصر الهلّينستي

اصطلح العلماء على تسمية الفترة التى تسبق ميلاد المسيح بأربعة قرون بالعصر الهللينستي وهى بداية التفاعل المباشر بين حضارات بلاد اليونان وحضارات الشرق القديم – أي منذ القرن الرابع قبل الميلاد حتى أوائل القرن الأول الميلادي.

والكلمة "هللينستي" مشتقة من اللغة اليونانية القديمة وتنقسم إلى مقطعين "هلين" وتعني يوناني و"استي" التي تعني شرقي. والمقصود بها المزج بين الحضارتين اليونانية والمصرية القديمة.

يبدأ العصر الهللينستي في مصر بانتهاء حكم الفرس لها فى موقعة آسوس فى أكتوبر ٣٣٣ ق.م على يد أعظم قادة التاريخ الإسكندر المقدونى، يصل القائد المنتصر إلى "بيلوزيوم" – والتي تعرف حالياً ببالوظة أو تل الفرمة، وتقع شمال غرب محافظة شمال سيناء كما تبعد ٣٠ كم عن محافظة بورسعيد الحالية – فيظهر أهلها الود والترحاب لما أشيع عنه من أخلاق وهو يقابل ذلك منهم بإظهار التوقير والاحترام لآلهتهم وشعائرهم، ويتم تنصيبه فرعوناً على الطريقة المصرية في معبد الإله آمون إله مصر الأعظم في سيوة وبذلك اعتبر ابناً للإله آمون.

في الطريق على ساحل البحر المتوسط يسترعي انتباه الإسكندر قطعة من اليابسة محصنة طبيعيًّا ذات مواصفات عجيبة تصلح لإنشاء عاصمة للقوة العظمى في الشرق. ولكن بحلول ٣٢٣ ق.م تلاشى الحلم الإمبراطوري بوفاة الإسكندر، لكن حياته القصيرة كانت كفيلة بتغيير مجرى التاريخ، فلم يعد للإمبراطورية الفارسية وجود واستسلمت البقية الباقية منها لسلطة المقدونيين الذين حملوا على عاتقهم عبء إنشاء الثقافة الهلينية تكريماً لحلم قائدهم بوحدة الشعب واللغة والثقافة والدين وساروا على نهجه في إقامة مدن على النسق اليوناني، واستقدموا العلماء والمفكرين والاقتصاديين والإداريين والفنانين وكذلك التجار والحرفيين المهرة حاملين معهم ثقافاتهم وتراثهم.

وكان ذلك التزاوج والامتزاج بين مختلف الحضارات والثقافات. فقد أراد أولئك المستوطنون الحياة في مصر وكأنها امتداد للوطن الأم باليونان ولكن مع كثير من الاحترام والإعجاب بحضارة المصري القديم، بأفكاره ومعتقداته، فهو يعرض أفكاره وحضارته إلى جانب المصري القديم تارة ويصور نفسه كمصري تارة أخرى. وذلك يعكس مدى تأثر الحضارة اليونانية بالمصرية القديمة في تلك الفترة وهو ما يسمى بالعصر الهللينستي.

وكانت الإسكندرية المدينة الأم مركزاً يشع بالعلم الإنساني، الذي انتقل إليها من أثينا مدينة الحكمة والعلم، ومن وادي النيل حيث مكتبات المعابد وعلوم الكهنة المصريين. كان الإغريق يسعون إلى تكامل الجانب الشكلي الجمالي مع الوظيفة الحياتية، ففن العمارة عندهم مثلاً تتميز المباني بالشكل والوظيفة، أما في النحت فإن التمثال يجب أن يتمتع بالاتزان الرياضي وهذا يوضح أثر الروح العلمية في الفن التخيلي الهندسي، والهندسة عندهم لا تنفصل عن الجمال والجمال شكل من أشكال الحكمة التي هي

© متحف الآثار بمكتبة الإسكندرية

الفلسفة أو *Philosophia* هكذا حدد الإغريق الحياة والمعرفة تحديدًا دقيقًا. وبعيدًا على ضفاف أعظم أنهار العالم القديم قامت حضارة أخرى لمعت في الأفق لم يشأ القدر لها أن تتروي بعد وهي الحضارة المصرية القديمة، التي قدست الموت بدلاً من الحياة، بل قدست الحياة نفسها إكراماً للموت لأنه الطريق الوحيد الذي يؤدى إلى الحياة الأخرى أو الخلود فى العالم الآخر. فقد كان فكر الخلود لدى المصري القديم هو الفكر الذي تتمحور حوله الحياة بتفاصيلها الدقيقة وكذلك ما تركه لنا من تراث فكري وفني متمثلاً في الفنون بنوعيها الكبرى والصغرى.

وهكذا تكاملت الحضارتان الإغريقية والمصرية وتجسد هذا التكامل عند التقائها في بقعة جديدة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط اختارها الإسكندر المقدوني ربما لتكون عاصمة لإمبراطوريته الجديدة التى لم يمهله القدر استكمال حدودها كما كان يحلم.

وجاء أحد أذكى قواد الإسكندر الأكبر المقدوني وهو "بطليموس" ليحقق حلم قائده الذي أصبح محصوراً فى الأراضي المصرية التي رحبت به واعتبرته ابنًا للإله – وبدأ العصر البطلمي بذلك القائد المنقذ كما أطلق عليه المصريون "سوتير" فبنى الإسكندرية على طراز المدن اليونانية على يد أمهر المهندسين اليونانيين، كما يرجع له الفضل في إنشاء مكتبة الإسكندرية القديمة ليكتب لها البقاء والخلود كما جاء على لسان وزيره ومعاونه "ديمتريوس الفاليري" وكذلك فعل باقي الملوك البطالمة أبناء وأحفاد بطليموس الأول المنقذ.

بدأت دولة البطالمة ثابتة الأركان قوية الدعائم خلال فترة الملوك الثلاثة الأول من الأسرة البطلمية، وأخذت تضعف بالتدريج إلى أن هوت على يد الرومان. ولكنها حكمت مصر مايزيد عن ثلاثة قرون كاملة، نهضت فيها مصر نهضة جبارة من حيث العلوم والمعارف والاقتصاد والتجارة والصناعة وازدياد عدد السكان.

وكان بدء الصراع بين آخر ملك بطلمي وهو بطلميوس الثالث عشر وآخر ملكة بطلمية وهى كليوباترا السابعة إيذاناً بانتهاء العصر البطلمي، أدى هذا النزاع إلى قيام حرب أهلية، حسم الصراع فيها قيصر روما وقائدها المغوار "يوليوس قيصر"، و لم تستمر سيادة هذه الملكة الطموحة طويلاً، فبعد وفاة يوليوس قيصر، نظرت روما لتلك الملكة بعين الداهية التي أرادت حكم الإمبراطورية الرومانية من مصر، وما أكد ذلك علاقة تلك الملكة فيما بعد مع أحد تلاميذ القائد الراحل يوليوس قيصر وهو القائد الواعد "ماركوس أنطونيوس" والذي تنافس مع ابن قائده بالتبني "أوكتافيوس" و لم يكن ربيب يوليوس قيصر العظيم إلا قائداً آخر، وكان ماكراً، أراد التخلص من كل منافسيه ليقترب من مجد قيصر روما، وقد استخدم لذلك المبدأ الرومانى الشهير "فرق تسد".

ونجح أوكتافيوس فى الإيقاع بين مجلس الشيوخ الروماني والملكة البطلمية في مصر مؤكداً ما تصر عليه هذه الملكة من رغبة في حكم روما من مصر وذلك بالتقرب للقائد المنافس ماركوس أنطونيوس الذى لم يعد له فى نفوس مجلس الشيوخ الروماني سوى الاستنكار وعدم التقدير.

© متحف الآثار بمكتبة الإسكندرية

وأراد أوكتافيوس حسم ذلك الصراع لصالحه، فكانت معركة أكتيوم في عام ٣١ ق.م والتي انهزمت فيها جيوش القائد الروماني ماركوس أنطونيوس والملكة البطلمية كليوباترا السابعة على يد أوكتافيوس أو أوغسطس كما سمي فيما بعد.

ولم ينته الصراع عند هذا الحد، فقد أدركت الملكة البطلمية سوء نوايا ذلك القائد الماكر، فتبدت لها صورتها وهي تساق مقيدة على إحدى العربات الرومانية التي تجرها الخيول، والجموع الرومانية تصرخ احتفالاً وزهوًا بنصر قائدهم. فآثرت الموت ملكة على العيش أسيرة.

المراجع:

١. ول ديورانت، موسوعة قصة الحضارة، المجلد الرابع، حياة اليونان، ٢٠٠١.
٢. جيمس هنرى برستيد، فجر الضمير. ترجمة: سليم حسن، ٢٠٠٠.
٣. سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، الجزء الرابع عشر، ٢٠٠٠.

© متحف الآثار بمكتبة الإسكندرية